

# أدب المرأة والمجتمع العربي

## بقلم عايدة مطر حيت أدريس

– الاستقلال الاقتصادي ، مشاركة في المسؤولية المالية للأسرة .

وبالتالي سعت إلى التحرر من نير العبودية .  
ولقد عبر الأدب عن هذا التحول في المجتمع، فصور كيف أن الجامعة مثلا أصبحت مكان التعارف، وكيف أصبح اللقاء يتم في المقاهي ، وكيف غدا الحب ، والتعبير عنه عاطفة انسانية تجهر بها المرأة ولا تخاف . وحتى الجنس لم يعد من المحرمات ، بل أصبح حاجة ، ومطلب لا تكاد تخلو منه اية رواية معاصرة .

ب – الشيء الجديد في تاريخ هذه الفترة ان المرأة نفسها شاركت في هذا الأدب وعبرت بقلمها عن رفضها الماضي، فكما عرفنا مثلا سيمون دوبوفوار وفرنسواز ساغان ممن تأثر بهن المجتمع، كانت روايات ليلي بعلبكي وكوليت خوري وقصص غادة السمان مثلا ابلغ دليل على رفض كل ما تعارف عليه مجتمعنا على انه من المحرمات ، موضوعا وشكلا ، عاطفة وجنسا .

وعرفنا في هذه الفترة كثيرا من ادب الجنس ، لدى كل من الكاتب والكاتبة ، كتعبير عن ثورة جيل لم ير في منظوره أكثر من الجنس موضوعا للثورة ، بينما رآه فريق آخر في ثورة قومية انسانية . وبرزت خلال هذه الفترة، سميرة عزام ، الادبية الفلسطينية الراحلة ، ترفض واقع الهجرة والتشرد ، وتفني احلام العودة ، وتحت عليها، فكانت قصصها من حيث المستوى الفني والنزعة الانسانية، احدي الركائز فيما يسمى بادب النكبة وادب ما بعد النكبة ، ذلك الادب الذي مهد التربة الصالحة لنمو الثورة الفلسطينية .

ج – وفيما كان المجتمع العربي يستمر في ثورته عن طريق الجنس ، حتى أصبح الجنس هو التعبير عن الثورة او هو الثورة نفسها ، كان الادب العربي ، فيما هو يتأثر بهذه الافكار ، يتخذ لنفسه ، غالبا ، منعطفًا جديدًا يميز المرحلة المعاصرة من مراحل تطوره ، تصبح فيه المرأة، في الادب ، جنسا وحلما وثورة .

وتتحدد هذه الفترة من ثورة ٢٣ يوليو التي تأثر بها العالم العربي . وخلالها سقطت اكثر من ملكية ، وانهار اكثر من نظام ، وطرححت فيها مبادئ اشتراكية ، وانفتحت آفاق جديدة من الوعي والثورة ، وانطرحت مفاهيم جذابة للبطولة والتحرير والنصر . خضات عديدة هزت المجتمع

مما لا شك فيه (١) ان تطور أي مجتمع يكمن في مدى تطور المرأة فيه . والمجتمع العربي ، الى فترة غير بعيدة ، كان ما يزال يعتبر موضوع المرأة نوعا من المحرمات . فما مدى تأثير هذه النظرة في الادب العربي الحديث ؟ وهل لعب الادب دور المنفعل ، السلبي بهذا المجتمع ام أنه فعل فيه ؟

### ( ١ )

أ ) لا ريب ان الادب العربي الحديث يجر وراءه ثقل الماضي بمواجهته المرأة التي كانت محرومة من حقها في العلم والحب والعمل . وقد انعكست هذه النظرة في الادب ، فامتلا بصور الواد والثار للشرف وللعائلة . وتكاد قصص الحب تقوم على وقوف المجتمع في وجه حق المرأة في الحب ازاء الاعراف الدينية والطبقية والقومية .

ب ) الى تاريخ متأخر كان الكاتب الرجل غالبا ، هو الذي يعكس هذه النظرة في ادبه . وكان في أغلب الاحيان شاهدا ، وثائرا حينما واذا اتفق وثار فان هذه الثورة تبدو واهية الجذور : لقد ظلت المرأة سلعة ، دون ان تخرج عن نطاق الشيء الممتلك او الحلم المرتجى . والشعر العربي مليء بالتعبير عن الحرمان من الحب ، حتى اذا امتلك ، أصبح شيئا باهتا ومرفوضا .

ج ) اما التعبير الادبي او الشكل الادبي لهذا الحب ، فلم يكن يخرج الا في النادر عن حدود تصوير العاطفة المستعرة . ولم يكن يتطرق الى تصوير رغبات الجسد الطبيعية .

### ( ٢ )

أ ) المرحلة الجديدة التي عرفها مجتمعنا ابان النهضة الحديثة ، كانت نتيجة ثورة اجتماعية وسياسية . وكان الالم ، والشعور بالظلم (ظلم المستعمر وظلم الرجل) الباعث الاول للثورة . ولقد لعب الادب دورا بارزا في تعميق روح التمرد والرفض والثورة . ولنا مثلا في كتابات جبران خليل جبران وامين الريحاني من لبنان اكبر شاهد . وفي فجر الاستقلال ، فتحت ابواب التعليم امام المرأة ، فكان العلم المنطلق الاشمل لتنظيم هذه الثورة وتوسيع آفاقها . فبالعلم دخلت المرأة ميدان التفكير وحققت :

(١) نقاط وملاحظات عامة اقيمت في الندوة التي عقدت في موسكو من ١١ الى ١٣ ايلول ١٩٦٩ بين وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين ووفد اتحاد الكتاب السوفيات .

العربي ، كان لكل منها تأثيره الكبير ، مضافة اليها حرب التحرير في الجزائر ثم هزيمة حزيران عام ٦٧ التي يعتبرها البعض نقطة التحول في التاريخ العربي . كل هذه المؤثرات أسهمت في إطلاق المرأة للمشاركة في التعبير عن مشاعر وحوادث لم يسبق للادب العربي ان عبر عنها . هي التحرير والبطولات الوطنية .

### ( ٣ )

يحمل ادب هذه الفترة الميزات التالية في ابراز هذا الوجه الجديد للمرأة :

( ١ ) لم تعد المرأة جنسا فقط ، بل هي ايضا شيء اخر .

● هي حلم كان في الماضي فرديا فتعمق الان واصبح حلم شعب وامة . المرأة العشيقة ، امتزجت بالعناصر الاولى للحياة فهي النار والتراب والماء والهواء . وفي القصص كثير من الشواهد التي تصور البطل يقبل تربة الوطن وكأنه يرتدي على صدره حبيته او يرى في بريق الطلقة النارية عدوة ابتسامتها ، الخ ) .

● المرأة ، هي الارض ، وهي الوطن : واغتصاب الارض كإغتصاب المرأة يلحق بالرجل العار . واسترداد الارض ، كاسترداد المرأة ، تهون في سبيلها الدماء . والعاشق في سبيلها ، يضحى بكل ما عرفته فروسية عنترية ، وحروب داحس والغبراء من معان للحب والشرف . والعاشق ، هو ايضا الفارس ، الذي يحيا بالحب والمقاومة وبالشعر . ( هكذا عرفنا المرأة - الحب لدى كبار كتاب الجزائر ككاتب ياسين مثلا حين جعل بطولته « نجمة » رمزا للجزائر الجريئة المقتضية ، فمزج فيها عرافة العروبة ووجه الحاضر المتطلع الى الاستقلال والحرية . وابلغ مثال ايضا على هذا التمازج بين الارض والمرأة وحلم التحرير ما نلمسه في شعر المقاومة العربية ، وبنوع خاص في شعر محمود درويش حيث تبلغ المرأة ذروة الرمز . فهي الحبيبة والارض والشعب . ويتعمق الرمز حتى يصعب التفريق بين عناصر التمازج فاذا العاشق هو فرع من اصل كما يبدو من هذا العنوان : عاشق من فلسطين . او حبيبتني تستيقظ من نومها ) .

٢ - الميزة الثانية لتأثيرات هذه الفترة على الادب ، انها ادخلت اوضاعا جديدة للمرأة نتيجة التطور الاجتماعي . انها مثلا المدرسة او العاملة او الكاتبة ، او المناضلة ، او الشاعرة .

٣ - تقييم جديد للمستوى الفني للمرأة . لا يستطيع المؤرخ الادبي مثلا ، الا يضع نازك الملائكة او فدوى طوقان في منزلة كبار معاصريهما من الشعراء .

٤ - مشاركة المرأة الفعلية في النضال عن طريق الادب . فدوى طوقان مثلا ، على ما عرفت به قصائدها

من عدوبة ورقية وشفافية ، ما تزال تصدح باعنف الابيات ثورة وبطولة ورفضاً للاستعمار الصهيوني في فلسطين الى جانب محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من شعراء الارض المحتلة .

فالادب العربي المعاصر كان ، اما مناظلا باقلام نسائية ( وهذا تميّز لانه ليس هناك الا ادب ) او رمزا للنضال في ادب الرجال . ( قصيدة جميلة بوحيرد مثلا لنزار قباني ترمز الى المرأة الجديدة التي فكّت عنها اغلال الماضي لتخبىء في صدرها سر القدرة . كما فيها دعوة لنساء المشرق العربي لتحذو حذوها ) .

الملاحظة الهامة هنا ان المجتمع العربي يسبق الادب في التعبير عن تطور المرأة . الا اذا اعتبرنا ان الادب . ابتداء من عصر النهضة ، ما يزال يفعل فعله البطيء المخمّر والمهيء لتفجير الثورة . ولكننا يجب ان نلاحظ ايضا انه لم تمض بعد الفترة الزمنية الكافية ، لتتجدد ادبيا ، الا من خلال بعض القصائد والقصص ، مشاركة المرأة في الغداء العربي . ولا بد للادب من ان يصور يوما البطلة التي فجرت القنابل ، وعرفت السجن ، وقادت خطف طائرات العدو .

المرأة العربية الجديدة في المجتمع الجديد التي لم يصورها بعد الادب العربي . ولكن التي لا بد ان يصورها يوما ، هي التي شغلت الصحافة العالمية في الاسبوع الماضي : امرأة جميلة ، انيقة . في وجهها ملامح عروبة اصيلة ، ذات سمرة داكنة ، كوت جينها شمس الصحراء ، وامتدت نظراتها عبر الفلاة ، في نفسها طموح لا يحد كذرات الرمال التي انبتتها ، وعطش الى العلم لا يرتوي . بطلة في ثورتها عزم الابطال ، وايمان الانبياء ، ويقين العالم وحب البقاء .

تلك البطلة ، هي بنت الثورة الفدائية العربية التي لا تفرق بين مناضل ومناضلة . لقد حققت اكبر نصر عرفه التاريخ العربي المعاصر : المساواة تجاه الحياة والموت . لقد خلق الشعور بالظلم والالتم لدى الشعب العربي صفاء ذهنيا وفجر فينا عزم ما كانت لتحققه المرأة في طريق تطورها الطبيعي .

ان عالمنا العربي ، بثورته الفدائية ، وبجناحيه المتكاملين ، مؤهل ليلعب دورا حضاريا جديدا يساهم فيه بتحرير العالم من سرطان الصهيونية والاستعمار الذي يدعمها . ولا شك في ان الادب العربي الحديث ، لا سيما بعد هزيمة حزيران ، يشارك مشاركة ايجابية في هذه الثورة ، من داخل الارض المحتلة ومن خارجها . وفي هذا الادب ، يبقى دور المرأة مزدوج الفعالية : الثورة من اجل انتصار الثورة التحريرية .